العربي وتركيا، مجموعات كبيرة هي من أوقاف الأسر أو الجوامع والمدارس في تركيا وبعض بلدان العالم العربي.

ولم يعد أمراً غريباً أن نجد في مكتبة تشيستربيتي مخطوطاً نفيساً كان وقفاً في جامع صغير من جوامع القاهرة، أو أن نقف على نسخة فريدة من مخطوط في التاريخ بالمتحف البريطاني يحمل نصاً يدلل على أنه كان وقفا في تونس.

تلك أبرز ملامح مرحلة انفراط العقد التي شهدت تدهور بنية المكتبة العربية والاضرار بثقافة الفرد العربي من خلال تدمير متنفس مهم أقيم من أجله ليرتاده ويستقى منه علما وثقافة تؤهلانه للابداع والابتكار والتزود بما يزيده تحضرا ورقيا.

ب ــ مرحلة لم الشتات :

أما المرحلة الثانية فهي التي نستطيع أن نطلق عليها مرحلة لم الشتات، وهي مرحلة قريبة العهد نبعت في أذهان أفراد هالهم ضياع الوقف الخاص بالكتب والمكتبات واستشراء العبث والاهمال إلى بنية المتبقي من ثروة الماضي التي بددها الطمع والجشع والاهمال، فكان أن عملوا على لم شتات ما بقى من مخطوطات وقفت على مدارس أو جوامع متناثرة في مكتبات مركزية حديثة تحفظ فيها تلك المخطوطات بعد أن تعالج مما يكون قد أصابها من أمراض أو تلف، وتخزن في أماكن مناسبة وتهيأ للاستخدام العام بما يعيد إليها روح الهدف الأصلي الذي وقفت من أجله، وهو تيسير العلم وتسهيل التحصيل لمن يرغب من طلاب المعروفة دون قيود تذكر.

ورغم أن الانسان قد يأسف لانتقال الآلاف من المخطوطات العربية، والتي تشكل الوقفية منها نسبة كبيرة إلى مكتبات في أوربا وامريكا، إلا أن ما تحظى به من رعاية وعناية في الأماكن التي انتقلت إليها إضافة إلى تمكن الباحث من الوصول إليها من خلال الاطلاع عليها مباشرة أو الحصول على مصورات لها، يدفع إلى اعتبار ذلك من الأمور الحسنة التي ساعدت على بقاء مجموعة كبيرة من نفائس التراث العربي، وخلاصها من عوامل التدمير والخراب التي سادت المنطقة بعد أن كساها ظلام الجهل في قرون متأخرة.

ويلاحظ أن فكرة لم شتات المخطوطات العربية التي كانت تشكل بنية المكتبة العربية قبل انتشار الطباعة في العالم العربي، والتي كانت محفوظة في المدارس والجوامع المقامة على الوقف، تعم اليوم مناطق كثيرة من العالم العربي، وبعض الدول الإسلامية، وذلك ضمن إطار العناية بتوفير أوعية المعلومات المساندة للبحث وتنمية المعرفة الإنسانية لدى طلابها، وحرصاً على ادخار ما تبقى من تراث نال منه الإهمال على مدى زمن طويل، مما أدى إلى ضياع جانب كبير منه.

وللتدليل على ضخامة حجم الكتب الوقفية في مجموعات المكتبات المعاصرة نورد هنا مجموعة من الأمثلة لمكتبات حديثة جل محتوياتها من هذا النوع من الكتب.

١ ــ دار الكتب المصرية :

أنشئت في عام ١٢٨٦هـ، وضمت مجموعة كبيرة من كتب الأوقاف بناء على أمر الخديوي إلى المرحوم علي مبارك ناظر المعارف في ذلك الوقت، ونستخلص من دراسة وضعت حول تاريخ هذه المكتبة على مجموعة من المؤشرات التي توضح دور الكتب الوقفية في بناء مجموعة المخطوطات فيها.

ففي سنة ١٨٧٦م ضمت إليها مكتبتا قوله ومصطفى فاضل وكانتا تحتويان على مجموعة طيبة من المخطوطات قدرت بحوالي ٣٤٥٨ مخطوطاً، وقام علي مبارك بجهود لجمع المخطوطات النفيسة إلى هذه المكتبة من المساجد والأضرحة ودور العلم وبلغ مجموع ما جمعه قرابة ٣٠ ألف مجلد بين مخطوط ومطبوع، ثم ضمت إليها فيما بعد مكتبات منها:

الخزانة التيمورية.
مكتبة الشنقيطي.
مكتبة الحسيني.
مكتبة طلعت.
مكتبة محمد عبده.
المكتبة الزكية.
مكتبة خليل أغا.
مكتبة مكرم[٣١].

٢ ــ مكتبة الأسد الوطنية :

كما أن مجموعة المخطوطات التي جعلت في المكتبة الظاهرية في دمشق التي يصل عددها إلى ثلاثة عشر ألف مخطوطة، وجمعت منذ عام ١٢٩٦ هجرية بمساعي من طاهر الجزائري الذي لاحظ ضياع كتب الوقف فشكا إلى رئيس الجمعية الخيرية بدمشق مما أدى إلى جمع الكتب الوقفية إبان حكم والى دمشق مدحت باشا، واستمر هذا الجمع في عهد أحمد حمدي باشا الذي عين والياً بعد مدحت باشا، وقد ضمت إلى هذه المكتبة في عام ١٢٩٩هـ عشر مكتبات هي:

المكتبة العمرية.
مكتبة عبدالله باشا.
مكتبة سليمان باشا.
مكتبة الملا عضمان الكردي.
مكتبة مراد النقشبندي.
مكتبة الشميصاتية.
مكتبة الأوقاف.
مكتبة الياغوشية.
مكتبة بيت الخطابة.
مكتبة مدرسة الخياطين.

وربطت المكتبة بدار الأوقاف في سنة ١٩١٩م ثم الحقت بديوان المعارف ثم جعلت تحت اشراف المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية حالياً)[٣٢]. ثم نقلت أخيراً إلى مكتبة الأسد الوطنية.

٣ ــ مكتبة الأوقاف العامة في بغداد :

أما مجموعة المخطوطات التي جمعت في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد، فهي ثمرة جهد كبير بذل من أجل تجميع كتب الأوقاف في العراق التي تعرضت للنهب والإهمال، فكان أن جاء مشروع هذه المكتبة.

ويوضح لنا عبدالله الجبوري مراحل التفكير في تأسيس هذه المكتبة فيذكر أن عبداللطيف المنديل وزير الأوقاف في الحكومة العراقية عام ١٩٢٢م، كان أول من

فكر في انشاء مكتبة تابعة لوزارته تجمع فيها الكتب المبعثرة في مساجد وجوامع بغداد، وساعده على تنفيذ الفكرة تحمس عبداللطيف ثنيان مدير أوقاف بغداد... ولكن المشروع توقف بإنتهاء فترة عمل المنديل ثم الثنيان، وعادت الفكرة مرة أخرى عندما تولى محمد أمين العباسي وزارة الأوقاف، ولكنه ترك منصبه قبل الشروع في التنفيذ، وفي عهد أحمد الداوود الذي تولى الوزارة عقب العباسي تألفت لجنة جمعت الكتب من مساجد بغداد وجوامعها وتكاياها، ومن ثم برزت إلى الوجود مكتبة الأوقاف العامة التي ضمت نفائس ما وقفه أهل الخير في القرون السابقة وأنقذ قيام هذه المكتبة مجموعة كبيرة من المخطوطات النفيسة من العبث والضياع والدمار[٣٣].

ومن المكتبات الوقفية التي احتوتها مكتبة الأوقاف بعد تأسيسها :

- مكتبة المدرسة السليمانية.
- الخزانة النعمانية (الألوسية).
- مكتبة جامع الكهيا.
- مكتبة مسجد الرواس.
- مكتبة جامع المصرف.
- مكتبة جامع الحيدرخانة.
- مكتبة مسجد نائلة خاتون.
- مكتبة جامع القبلانية[٣٤].

٤ ــ مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة :

تأسست عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، باسم مكتبة المدينة المنورة العامة، وكان لجعفر فقيه الفضل الأكبر في ذلك ومن بين المكتبات الوقفية التي ضمت إليها :

- مكتبة المدرسة القازانية.
- مكتبة المدرسة العرفانية.
- مكتبة المدرسة الاحسانية.
- مكتبة مدرسة الشفاء.
- مكتبة مدرسة كيلي ناظري.
- مكتبة رباط الجبرت.
- مكتبة رباط عثمان.
- مكتبة قراء باشي.

كما أن من بين ما ضمته، الكتب التي وقفها إبراهيم بن سعدالله الختني، ومكتبة صافي الجفري العلوي[٣٥]، ويبلغ عدد المخطوطات فيها حوالي ٧٤٤٥ مخطوطة

وقد حولت مجموعة مكتبة المدينة المنورة العامة إلى مكتبة الملك عبد العزيز العامة التي تأسست في عام ١٤٠٣هـ.

٥ ــ مكتبة الأوقاف في حلب :

تكونت من مجموعات وقفية متناثرة في مدارس وغيرها مثل :

ــ المدرسة العثمانية.

ــ المدرسة الصديقية.

ــ المدرسة الأحمدية.

وقد وصل عدد ما احتوت عليه من مخطوطات حتى عام ١٩٧٦م إلى ٥٥٦٠ مخطوطاً[٣٦] ثم نقلت مخطوطات هذه المكتبة لتضم إلى مكتبة مخطوطات معهد التراث العربي في جامعة حلب، ثم نقلت جميع النسخ الأصلية من المعهد إلى مكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

٦ ــ مكتبة الأوقاف في الموصل :

افتتحت عام ١٩٧٢م، وتضم ٣٥ مجموعة من المخطوطات التي كانت تكون مكتبات في مدارس ومساجد[٣٧].

وهناك نماذج أخرى كثيرة في دول عربية مثل تونس والمغرب والجزائر واليمن حيث جرى تجميع المخطوطات الوطنية في مكتبات حديثة، وهكذا نجد أن ذلك الصرح الشامخ الذي شيده المخلصون الأبرار على مدى قرون ليصبح الكتاب غذاء للإنسان في كل رقعة ينطق فيها بالعربية، تهاوى.. ودمر.. ونهب، فأصبح من غير المستغرب أن تكون كتب المستنصرية التي وقفها الخليفة المستنصر بالله وغيره من العلماء الأجلاء موزعة في مكتبات أجنبية في شتى أنحاء العالم.

ومن يجوب مكتبات العالم، خاصة هناك في أوربا سيقف على مخطوطات كانت في مدارس وجوامع ومكتبات عربية خذلها الجهل والاغراق في الكسل والاستسلام للسقوط فنقلت أكداساً إلى أماكنها الجديدة لتصبح من مفاخر المكتبات التي حلت فيها في العالم الغربي.